أهون ألف مرة !
أن تدخلوا الفيل بثقب ابره
وأن تصيدوا السمك المشوي ..
في المجرة
أهون ألف مرة !
أن تطفئوا الشمس ، وأن
تحبسوا الرياح
أن تشربوا البحر ، وأن ..
تنطقوا التمساح
أهون ألف مرة ..
من أن تميتوا ، باضطهادكم ،
وميض فكره
وتحرفونا ، عن طريقنا الذي اخترناه
قيد شعره !!

لكنه ينجح على الاقل في الدلالة على درجة الاذلال والاضطهاد الذي يحسه العرب أو يعانون منه في اسرائيل .

وأخيرا ، هناك توقع بهيج للموت ، وهاجس ديني صوفي بالصلب على انه الامل الوحيد لخلاص الشاعر وشعبه . لذا فان السجون والقيود والتعذيب التي تتكرر صورتها في هذا الادب لا تبدو وكأنها عاجزة عن اخماد روح الشاعر فحسب، بل في الاحرى هي ذات تأثير في تصعيد ايمانه وتجديده بانتصار قضيته . ولكي يبقي على قوته الروحية وكبريائه وتحديه وايمانه ، يلجأ الشاعر الى عدد متزايد من الوسائل أو الرموز ، ومن جملتها الرموز المستقاة من مناظر الطبيعة والاحداث الماضية في التاريخ العربي الاسلامي ، بالاضافة الى التلميحات لمجموعة من الابطال والاساطير ، والقضايا المنتصرة لدى أمم أخرى في التاريخ القديم والحديث ، والى صلب المسيح ، فوق كل شيء .

فالصخور والجبل ، وجذور الاشجار المختلفة من الزيتون والتين الى النخيل ، كلها توحي للشاعر بصور تؤكد على صلته العميقة الجذور والتي يتعذر انقطاعها مع التراب في وطنه ، وعلى انتصار هذا الوطن . وكما أعلن درويش بنفسه ، فان الشجرة بنظر الشاعر تتصب كرمز لاستمرارية الحياة والامل والصمود والوجود الاصلي في البلد . لذا نراه نتيجة لذلك يسقط وطنه على صورة شجرة النخيل ، هذه الشجرة التي لا تنحني أمام العاصفة ولا تعبأ بضربات فأس الحطابين ، وتتبع بمنأى عن وحوش الصحـــراء والغابة . أو نجده يذكر أمه الا تيأس اذا طواه الموت ، لان جذور شجرة التين الممتدة في تلابيب الصخور سوف تنبت أغصانا جديدة الى الابد . ففي قصيدة بعنوان « مطر » تنقلب سفينة نوح ، وهي رمز للخلاص ، الى رمز للموت ، لانها تعني الاقتلاع من الجذور ، وسلامة الشاعر لا يمكن الحفاظ عليها الا فوق التراب الذي يمد جذوره بالغذاء(٤٢) .

الجبل والبحر يجري استخدامهما بمثابة رموز متغايرة . فالاول يرمز الى التصميم على البقاء وللحياة ، اما الثاني فهو رمز للموت او بؤس التجوال . وفي قصيدة عنوانها « في انتظار العائدين » يضع درويش نفسه مكان ابن عوليس الذي ينتظر فوق الجبل عودة التائهين :

وأنا ابن عوليس الذي أنتظر البريد من الشمال
ناداه بحار ، ولكن لم يسافر .
لجم المراكب ، وانتحى أعلى الجبال .